استراتيجية الصبر عند الرسول المعلم في مكة ونتائجها

حسين عزات عطوي*

كلّف الله تعالى نبيّه محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالرسالة الخالدة الخاتمة، بعد أن بلغ أربعين سنة، كانت كفيلة بصقل شخصية هذه النبي العظيم، وتأهيلها لتتحمل أعباء الرسالة والدعوة بوعورة مسالكها، والمنزلقات التي تقف في طريق إيصالها للناس، خاصة أن المجتمع الجاهلي كان متشبثًا بعبادة الأصنام التي تجذرت في نفوسهم على مدى قرون خلت، فنصبوها حول الكعبة "لتقربهم إلى الله زلفى".

استطاع النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم شقّ طريق دعوته من خلال التركيز على مجموعة ركائز حددها القرآن الكريم، تمثلت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[1].

فقد حدد الله تعالى لنبيّه مهمة إنذار الناس عامة، ومنحه أدوات تعينه في طريق الدعوة الطويلة، تكبيرًا وتطهيرًا وهجرًا لموجبات العقاب، وحبّ الفعل لفعله لا لمنّة يريدها. وأخيرًا حدد له الصبّر شرطًا أساسيًّا لنجاح المهمّة التي كلّف السير فيها.

أما الركيزة الثانية التي خطّها الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام، فتمثّلت بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[2]، لأنّ الأهل والعشيرة خير من يعين في مسيرة الدعوة.

أدرك النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من البداية أنّ طريقه شاقة وطويلة، لكنّه لم يتوانَ لحظة واحدة عن تبليغ رسالة الله تعالى، لأنها أمر واجب التحقيق، وإذا قضى الله تعالى أمرًا، فما على الرسول إلا السيّر به حتى النهاية، دون النظر لعواقب الأمر، وقد تجلّى ذلك بوضوح في حادثتين بارزتين في مسيرة الدعوة الإسلاميّة، كانت الأولى حين جاءه الأمر بإنذار عشيرته الأقربين، وكان ذلك في بداية الدعوة، ولم يؤمن معه بعد إلا رجل وطفل وامرأة وربيب، فلم يتوان عليه الصلاة والسلام عن إرسال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، ليدعو قومه إلى جلسة صريحة، يعرض فيها عليهم الإسلام، وكان فيهم عمّه أبو لهب، والنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يعلم مدى رفض أبي لهب لما جاء به ابن أخيه[3]. وفي الحادثة الثانية حين عاد من رحلة الإسراء والمعراج، خرج على الناس يحدثهم بما جرى معه[4]، على الرغم من أنه كان يعلم مدى التحدي الذي يواجهه في هذا الموقف. وكل ذلك نتيجة للصبر الذي تحلّى به. فكان عاملا حاسمًا في مسيرة الدعوة المباركة.

مرّ النبي صلى الله عليه وسلم بتجربة حياة قاسية صقلت جسده وشخصيته وعقله، بحيث أصبح قادرًا على تحمّل أعظم حمل

إيماني وفكري ونقله للبشرية جمعاء صافيًا نقيًّا، لا نقص فيه ولا زيغ، وما كان ليكون ذلك لولا صبره صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلم وجلده، ورفضه لكل صنوف المساومات، ومحاولات حرف الدعوة عن مسارها، لتكون عنصر تقاسم، ومسايرة. وما جلسات الحوار التي التقى فيها النبي صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلم مع زعماء قريش في بيت عمّه أبي طالب سوى محطات، حاولت فيها قريش المساومة على الدين، بالأخذ والعطاء. وكان في الجلسة الأولى عرضًا، يقضي بأن يتخلّى عن الدعوة مقابل الحفاظ على حياته[5]. وفي الجلسة الثانية عرضوا عليه تقاسم الدين بأن يأخذ بعضًا من دينهم ويعطيهم بعضًا من دينه[6]. ولما رفض العرض الثاني، تقدم زعماء قريش بعرض ثالث، يقضي بالتخلص منه مقابل شابّ قوي جميل من شباب قريش، يعطيه زعماء قريش لبني عبد المطلب، ليكون بديلًا من النبي صلى الله عليه وسلم[7].

- **التربية النفسية التي أهّلت النبي لحمل الدعوة**

– **الولادة والطفولة**

ولد النبي صلّى الله عليه وسلم عام الفيل بعد أن هزم الله تعالى جيوش الحبشة التي جاءت لهدم الكعبة المشرّفة، وصرف العرب عن الطواف حولها. وكانت الولادة ليست كباقي الولادات، فقد ذكرت كتب السيرة أن النبي صلّى الله عليه وسلم ولد مكتملًا كأنه ابن سنة، جاثيًا كأنه ساجد، وكانت أمّه آمنة وهي حامل به رأت رؤيا، كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام[8]. ثم وقع على الأرض معتمدًا على يديه، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء. وفي رواية "فولدته نظيفًا، ولدته كما يولد السخل ما به قذر، وقد ولد مختونًا مسرورًا"[9]. ويروي ابن اسحاق أنّ آمنة كانت تحدث حين حملت برسول الله صلّى الله عليه وسلم أنها أتيت فقيل لها "إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شرّ كل حاسد، ثم سميه محمدًا"[10].

أما عبد المطلب فرأى في منامه "كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها"[11]. وسمّاه عبد المطلب محمدا. ولم تكن العرب تسمّي بهذا الاسم قبل ذلك، إلا خمسة كان آباؤهم يترددون على بلاد الروم وسمعوا بالنبي الموعود وباسمه، فرجا كل واحد منهم أن يكون ابنه المقصود فسمّاه محمدا[12]*.

العلامة الثانية في تربية النبي صلى الله عليه وسلم جاءت بعد أن ذهب مع حليمة السعدية ليسترضع في الصحراء عند بني سعد، وهناك ظهرت معجزات من اللحظة الأولى لاستلام حليمة للرضيع المبارك، فنشط كل شيء في حياتها، وعمّت البركة في خيراتها[13]، ثم جاءت العلامة الثالثة بشقّ الملائكة لصدره، واستخلاص نكتة سوداء من قلبه، ثم إعادة كلّ شيء إلى

حاله الأولى[14]، وكان النبي صلّى الله عليه وسلم يعاين كلّ ذلك، ويتأثر بما يدور حوله، فيشتد عوده، وتقوى عزيمته، ويشعر أن عناية إلهية تحيط به. خاصة أنه ولد يتيمًا فقيرًا.

العلامة الرابعة تمثلت بوفاة أمه ولمّا يبلغ السنوات الست بعد، وبدأت مرحلة جديدة من الكفالة والظروف الحياتية القاسية التي تحملها عليه الصلاة والسلام بكل صلابة وقوة، وبعد فترة وجيزة من كفالة جدّه عبد المطلب له، فجع بوفاته، ثم كفله عمّه أبو طالب، وكان رجلًا كثير العيال قليل الموارد، فكان لزامًا على رسول الله صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلم الخروج للعمل والكسب مبكرًا، فتوجه ليعمل راعيًا لغنم بعض أهل مكة على أجر بسيط.

العلامة الخامسة رواها الحاكم عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: "ما هممت بما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر، كلاهما يعصمني الله تعالى منها، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش في أعلى مكة في أغنام لأهلها ترعى: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما تسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت، فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف وزمر، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة لرجل من قريش تزوج امرأة، فلهوت بذلك الغناء والصوت حتى غلبتني عيني فنمت، فما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت، وغلبتني عيني، فما أيقظني إلا مسّ الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت، فقلت: ما فعلت شيئًا. قال: رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فوالله ما هممت بعدها أبدًا بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته"[15].

العلامة السادسة عندما "خرجت حليمة تطلب النبي صلّى الله عليه وسلم، وقد بدت إليه تقبل، فوجدته مع أخته، فقالت: في هذا الحر! فقالت أخته: يا أمه، ما وجد أخي حرًّا، رأيت غمامة تظلّ عليه، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت معه، حتى انتهى إلى هذا الموضع"[16].

العلامة السابعة ما رواه ابن سعد، أن أبا طالب عطش، وكان يرافقه النبي صلّى الله عليه وسلم فشكا ذلك له، فضرب النبي صلى الله عليه وسلم عقب قدمه بالأرض فخرج الماء، وشرب أبو طالب[17].

وعندما ذهب به عمّه أبو طالب في تجارة إلى الشام والتقى به بحيرة الراهب، كانت العلامة الثامنة التي عرف بها بحيرة وجود النبي صلّى الله عليه وسلم في القافلة، غمامة تظلّه، وتسير معه أينما سار، ولمّا دعاهم إلى الطعام بقيت في رحالهم، لأن النبي صلّى الله عليه وسلم كان حدثًا فلم يدخله عمّه معه في دعوة الراهب[18].

العلامة التاسعة كانت في رحلة النبي صلّى الله عليه وسلم إلى الشام في تجارته لخديجة حين رأى ميسرة خادم خديجة رضي الله عنهما ملكين يظلان النبي صلّى الله عليه وسلم، وحين عودة النبي صلّى الله عليه وسلم إلى مكة ودخوله على خديجة

رأت الملكين يظلانه، فأخبرت ميسرة وأعلمها الأخير بما رأى خلال الرحلة[19].

العلامة العاشرة ذكرها ابن عسكر عن جلهمة بن عرفطة قال: "قدمنا من مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب: أقحط الوادي، وجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام، كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتماء، وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره للكعبة، ولاذ بإصبعه الغلام، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق واغدودقت، وانفجر الوادي وأخصب النادي والبادي.

هذه عشر علامات من عشرات العلامات التي كان النبي صلّى الله عليه وسلم يشاهدها تجري معه وبين يديـه، فكانـت تعطيه إشارات واضحة بـأن أمرًا جللًا ينتظره في قابل الأيام، فيحفظ ما شاهد، وينتظر.

- **الفتوة والشباب**

أراد الله عزّ وجلّ أن يهيئ نفس النبي صلّى اله عليه وسلم لتحمل الدعوة. وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم حاضرًا وشاهدًا على بعض الأخبار وما قال في حقّه بحيرة الراهب، ولتأكيد تميزه عن باقي فتيان مكة، حصل له يومًا وهو يلعب مع غلمان مكة ما يؤكد تميزه عنهم، يروي جابر بن عبد الله رضي الله عنه فيقول: "لما بنيت الكعبة ذهب النبي صلّى الله عليه وسلم وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي صلّى الله عليه وسلم: اجعل إزارك على رقبتك يقك من الحجارة، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق، فقال: "إزاري إزاري" فشدّ عليه إزاره"[20].

قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: "قلت يا رسول الله، كيف علمت أنك نبيّ أول ما علمت، حتى علمت ذلك واستيقنت؟ قال: يا أبا ذر، أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة، فوقع أحدهما في الأرض، والآخر بين السماء والأرض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: هو هو، قال: فزنه برجل، فوزنت برجل فرجحته، ثم قال: زنه بعشرة، فوزنني بعشرة فرجحتهم، ثم قال زنه بمائة، فوزنني بمائة فرجحتهم، ثم قال زنه بألف، فوزنني بألف فرجحتهم، فجعلوا ينتثرون عليّ من كفة الميزان، قال: فقال أحدهما للآخر: لو وزنته بأمته رجحها. ثم قال أحدهما لصاحبه: شقّ بطنه، فشقّ بطني، ثم قال أحدهما: أخرج قلبه – أو قال: شقّ قلبه– فشقّ قلبي، فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدم، فطرحها، ثم قال أحدهما للآخر، اغسل بطنه غسل الإناء واغسل قلبه غسل الإناء – أو اغسل قلبه غسل الملاءة– ثم دعا بالسكينة، وكأنها وجه هرة بيضاء، فأدخلت قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خط بطنه، وجعلا الخاتم بين كتفي، فما هو إلا أن وليا عنّي فكأنما أعاين الأمر معاينة"[21]. وعن برة بنت أبي تجرأة قالت: "إن رسول الله صلّى الله عليه وسلم حين أراد الله كرامته، وابتداءه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتًا، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية، فلا يمرّ بحجر ولا شجرة إلا قالت: السلام عليك يا رسول الله، فكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدًا"[22]. وفي رواية لمسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول

الله صلّى الله عليه وسلم: "إني أعرف حجرًا بمكة، كان يسلّم عليّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه الآن"[23].

إنّ هذا الحديث وغيره من أحاديث البشارات للنبي بالنبوة تشكل مظهرًا من مظاهر الإرهاصات والتمهيدات التي هيأت رسول الله صلى الله عليه وسلم للأمر الجلل، وهو استقبال الوحي[24].

والأحاديث بذلك تطول من وجوه الإرهاصات التي رافقت طفولة وشباب النبي صلى الله عليه وسلم، ووصلت به لمرحلة جديدة، هيأته للقرب أكثر من لحظة نزول جبريل عليه، وتبليغه رسالة السماء، فقد كانت هذه المشاهد التي مرّت في حياته عليه الصلاة والسلام كفيلة بأن تشعره، لا بل تجعل في عقله يقينًا أن أمرًا عظيمًا سيُكلَّف به من عند ربّ العالمين. لذلك بدأ يتردد قبل نزول الوحي بقليل إلى غار حراء البعيد من الناس وهمومهم ومشاكلهم، وهناك يجلس الأيام الطوال يتأمل ويراقب الكون وما فيه. بانتظار نزول الوحي، الذي لم يتأخر كثيرًا في حمل أمانة السماء ليضعها بين يدي النبي صلّى الله عليه وسلم.

- **الرسالة ونزول الوحي**

شكلت الإرهاصات التي رافقت حياة النبي صلّى الله عليه وسلم منذ ولادته حتى بلغ سن الأربعين، أساسًا متينًا لتحمل قوة الوحي الذي جاءه أول مرة وهو في غار حراء، يأمره بالقراءة، حتى إذا ما نزل من الغار خائفًا فزعًا، طالبًا من زوجته خديجة رضوان الله عليها أن تزمله، عاد إليه الوحي مرة ثانية ليأمره بزيادة الاستعداد لاستقبال أمر تبليغ الدعوة العظيمة للبشرية، فكان الأمر أولًا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلا نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا﴾[25]. فيقوم عليه الصلاة والسلام مطيعًا لله تعالى، واقفًا بين يديه، يقوم الليل، مصليًا خاشعًا، منتظرًا الخطوة التالية التي ستكون بالتأكيد أثقل من الخطوتين الأولى والثانية، فيأتي الأمر الثالث من ربّ العالمين بعد أن تهيّأت نفس النبي صلّى الله عليه وسلم، وتأكّد بمعرفة ورقة بن نوفل وقرأ المستقبل من خلال ردّه – وكان رجلًا من الذين تركوا عبادة الأصنام، وعبدوا الله تعالى، وله علم من كتب الأقدمين– أن هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، ويضيف ورقة للنبي عليه الصلاة والسلام، "يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَأُوذِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا"[26].

وتمثل الأمر الثالث بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[27]، لتبدأ مرحلة جديدة في حياة النبي صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم، وفي حياة العالمين انطلاقًا من مكة المكرمة وبلاد العرب.

- **حرب قريش الشرسة على النبي**

بدأت قريش حربها على الدعوة الإسلامية قبل أن يعلن رسول الله صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم الدعوة للناس، لكن

السيرة الطيبة لمحمد (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) بين الناس منعت زعماء المشركين من التمادي في إيذاء النبي وتكذيبه، فقد عرف في شبابه بين أهل مكة بالصادق الأمين، لذلك بحثت قريش منذ البداية عن أفضل الوسائل لمحاربة الدعوة الإسلامية. وارتكزت خطة المواجهة عند قريش على مجموعة من التكتيكات، شكلت عوائق فعلية في طريق الدعوة الإسلامية في مكة، لكنها لم تفلح في تحقيق هدفها بإفشال دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، ودفعه لليأس، وترك ما يقوم به، بل على العكس من ذلك، فقد واجه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحملات بروح قوية، وهمّة عالية، فأفشل خططهم، ودفعهم هم لليأس من مواجهته في نهاية المطاف. والمتابع لسيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم يلحظ بعض التكتيكات التي اتبعتها قريش، وكيف واجه النبي صلّى الله عليه وسلّم هذه التكتيكات...

- **صبر النبي على حرب أبي لهب له**

وجد زعماء المشركين أن أفضل طريقة لحرب الدعوة تبدأ من داخل البيت المطّلبيّ، وكان رأس الحربة في هذه المواجهة مع النبي صلّى الله عليه وسلم عمّه أبو لهب، ومن الخطوات التي قام بها، أولا حاول منع النبي صلى الله عليه وسلم من إيصال الدعوة لأهل بيته خلال الاجتماع الذي دعا إليه النبي صلّى الله عليه وسلم، ونجح في اللقاء الأول والثاني في حرف اللقاء عن مساره، ومنع النبي صلّى الله عليه وسلم من إقناع أعمامه وأبناء أعمامه بالدين الجديد، وفشل في الثالثة[28]. فهدد وتوعد ووصف النبي صلّى الله عليه وسلم بشر بني قومه لما جاء به من تفريق بين الناس وإهلاك لأهله[29]، ولمّا لم تنفع معه هذه أيضًا، قرر التضييق على النبي صلّى الله عليه وسلم اجتماعيًّا، فأمر ولديه عتبة وعتيبة بتطليق بنتي النبي صلّى الله عليه وسلم رقية وأم كلثوم، وكان قد خطبهما لهما قبل نزول الوحي[30]، وتابع ذلك بخطوة أخرى تمثلت باللحاق بالنبي صلى الله عليه وسلم في المجالس يكذّبه كلما جلس مع قوم يدعوهم إلى الله تعالى وتوحيده، وترك عبادة الأوثان، فيقول لهم أبو لهب: "لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب، فيردّون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبح الردّ ويؤذونه، ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك"[31]. وكان أشد ما يؤذي رسول الله صلّى الله عليه وسلم هو إيذاء أهله له، فإيذاء الأهل أشد مرارة من إيذاء غيرهم.

- **صبر النبي على السخرية والاستهزاء والشبهات**

استخدم زعماء الشرك أسلوب الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم ودعوته على نطاق واسع في محاولة لتثبيط عزيمته صلّى الله عليه وسلم، فقد استغل هؤلاء عدم إجابة النبي صلى الله عليه وسلم لسؤال الوفد الذي ذهب لاستفسار يهود في المدينة، وبدأوا يرجفون في مكة أن محمدًا عجز عن الجواب[32]. ثم بثّوا أن النبي صلّى الله عليه وسلم مجنون وساحر وكاهن، وأوصاف عديدة ردّ عليها القرآن

الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[33]، ووصموه بالسحر والكذب، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[34].

وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعلة هائجة، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[35]، وإذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم، وقالوا: هؤلاء جلساؤه: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[36]؟ كان كفار قريش كما قصّ الله تعالى علينا حالهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾37. هذه بعض أوجه السخرية والاستهزاء والتكذيب، ولا يتسع المجال أكثر.

- **تعذيب الصحابة وصبرهم**

أوذي أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلم مبكرًا، واستخدم المشركون أسلوب العروض والإغراءات والتزهيد بالمستجيبين من القوم[38]. علّ تعذيب أصحابه أمامه وعجزه عن نصرتهم، يدفعه لرفع السلاح، أو للتسليم لقريش بالهزيمة، أو قبوله بالمساومة على دينه....

أدركت قريش حبّ النبي صلّى الله عليه وسلم لأصحابه، وشفقته عليهم، لكنها لم تدرك أن هذه الدعوة تهون فيها المصائب، لأنها موصولة بالله عزّ وجل، وما يصيب أتباعها فيه خير لهم، لأنه امتحان يجتازونه إلى آخرة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فالتفتت قريش إلى المؤمنين تعذبهم وتفتنهم عن دينهم.

عذّب زعماء قريش المستضعفين من المؤمنين، لكنهم فشلوا، حتى كاد الزعماء يفقدون صوابهم وهم يعذبون بلالًا وعمارًا وسميّة، وغيرهم من المؤمنين الذين لم يجدوا من يدافع عنهم ويحميهم، واستعصى بلال بن رباح الحبشي على معذبيه، فكان كلما دعوه ليكفر بالله تعالى يقول: "أحد أحد"، ولم يخلصه من عذابه إلا أبو بكر جاء إلى أميّة بن خلف واشتراه منه، في وقت كان أميّة في أشد حالات الضعف النفسي أمام عبده المعذب[39]، وضُرب أبو بكر رضي الله عنه حتى ظن الناس أنه قد مات[40]، وكان عمّ عثمان بن عفان رضي الله عنه يلفه في حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته، ظنًّا منه أن عثمان سيرضخ ويعود عن دينه[41]، ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلام مصعب، أجاعته وأخرجته من بيته، وكان أنعم الناس عيشًا، فتخشف جلده تخشّف الحيّة[42]، وعذب العاص بن وائل خباب بن الأرت ومنعه ماله الذي كان له على العاص طالبًا منه أن يكفر بمحمد لكن خباب أجابه: "لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث"[43]. وكانت زنيرة النهدية وابنتها وأم عبيس إماء أسلمن، وكان المشركون يسومونهن من العذاب ما لا يوصف[44].

واستخدمت قريش أسلوب العقاب الاقتصادي والاجتماعي مع المؤمنين برسول الله صلّى الله عليه وسلم، فوثبت كل بطن من بطون قريش على من كان فيها من مؤمنين فحبسوهم بالحديد وعذبوهم واضطهدوهم[45]. ووصل الحال بقريش حدّ أن يقوم أبو جهل عمرو بن هشام بطعن امرأة مؤمنة في موضع عفتها دون أن تتحرك عنده نخوة العروبة والشرف، وكل ذلك من أجل الضغط على المؤمنين للعودة عن دين الله[46].

اخترع عقل أبي جهل الشيطاني سلسلة من الإجراءات العقابية بحقّ المؤمنين، فوضع قاعدة ليسير عليها كبار القوم في مواجهة الدعوة الجديدة وأتباعها، تقوم على جملة من المقررات والخطوات الواجب اتخاذها مع كل صنف من أصناف متبعي محمد صلّى الله عليه وسلم، فكان "إذا سمع بالرجل قد أسلم، وله شرف ومنعة، أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنُفَيّلنّ رأيك، ولنضعنّ شرفك، وإن كان تاجرًا قال: والله لنكسّدنّ تجارتك، ولنهلكنّ مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به"[47].

- **صبر النبي والمؤمنين خلال المقاطعة في شعب أبي طالب**

كتب زعماء المشركين كتابًا تعاهدوا فيه على مقاطعة النبي صلّى الله عليه وسلم وعشيرته والمؤمنين معه، مما اضطرهم لترك مكة والالتحاق بشعب لأبي طالب خارجها، بقوا فيه ثلاث سنوات أكلوا فيها لحاف الشجر وجلود الجمال، ولاقوا مصابًا عظيمًا من هذا الحصار، حتى فكّه الله تعالى عنهم بحشرة صغيرة أكلت صحيفتهم التي علقوها في جوف الكعبة، كتبوا فيها بنود المقاطعة. لكن الله تعالى سلم نبيه والمؤمنين بدعوته، وخرجوا من الشعب أكثر صلابة، وأشدّ عزمًا على مواجهة الشرك والمشركين[48]. على الرغم من أن النبي صلّى الله عليه وسلم أصيب بعد الخروج من الشعب بمصابين كبيرين تمثل الأول بوفاة عمّه أبي طالب، ثم لحقت به خديجة رضي الله عنها نتيجة المرض والحصار، ليجد النبي صلّى الله عليه وسلم نفسه بعد وفاة أبي طالب عرضة لإيذاء المشركين، وقد تفرق بنو هاشم والمطلب من حوله.

- **صبر النبي في دعوته ونتائج ذلك**

صبر النبي صلّى الله عليه وسلم على إيذاء قريش لنفسه ولأصحابه، واستطاع طيلة الثلاث عشرة سنة التي قضاها في مكة أن يلتفّ على كل ألوان التضييق والحصار التي مورست عليه، فقد كان يغشى مجالس قريش، يكلمهم، ويدعوهم إلى الله تعالى، وكان يلاقي منهم السخرية والإيذاء الجسدي، لكنّه يعود كلما سنحت له الفرصة لذلك، وقد طلب يومًا عتبة بن ربيعة أن يكلمه، فطمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلام الرجل، فأجاب دعوته، وتبادلا الحديث طويلا، حتى كاد عتبة يسلم، لولا خوفه من أن تعيره قريش[49]، "وقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلمّا جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال ورائي أني

قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشّعر ولا بالسّحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم"[50].

هذا المستوى من الخطاب النبوي أوصل رأس الشرك في مكة عمرو بن هشام (أبو جهل) لاتخاذ قرار تصفية النبي صلى الله عليه وسلم، وأعلن قراره هذا أمام الملأ من زعماء قريش، ولمّا همّ بتنفيذ مخططه الخبيث، تدخلت العناية الإلهية لحفظ رسول الله صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وعرض لأبي لهب فحل من الإبل، فألقى الحجر الذي كان بيده يريد ضرب النبي صلّى الله عليه وسلم به، ورجع إلى نادي قومه ممتقع لونه خائف يرتجف[51].

ولمّا شعر رسول الله صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم أن الأبواب سدت بوجهه في مكة، اتخذ وجهة جديدة علّها تكون أفضل، فذهب إلى الطائف، وهناك لاقى أشد ما كان يلاقيه في مكة، لكنه صبر[52]، وحين جاءه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره بمصير القوم المعاندين، أجاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم، "بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى"[53].

لم يستخدم النبي صلّى الله عليه وسلم مع قريش فقط اللين والصبر على الإيذاء، فالموقف يتطلب ما يوافقه، وحدث أن زعماء الشرك جلسوا يومًا يستهزؤون بالنبي صلّى الله عليه وسلم، وهو يطوف حول الكعبة وأكثروا فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى وقف في مواجهتهم، وأشار لهم واحدًا واحدًا، وهو يقول: "أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح"[54]، وعندما ألقى بعض زعماء المشركين سلى الجزور على رأسه وهو ساجد، جاءت فاطمة رضي الله عنها تبكي، وكانت صغيرة، وألقت ما على رأس والدها وظهره من أوساخ، وقف عندها النبي عليه الصلاة والسلام ونظر في وجوههم ودعا عليهم، "اللهم عليك الملأ من قريش: أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف وأبي بن خلف..."[55].

- **الخاتمة والتوصيات**

حققت استراتيجية الصبر في دعوة النبي صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم نتائج عظيمة، فقد منعت قريش في بداية الأمر من استخدام القوة المميتة لإسكات صوته عليه الصلاة والسلام، وسمحت له بالبقاء يتحرك كيفما يشاء في مكة، ينطلق كلما سمع بشخص جديد جاء إليها يطلعه على دينه، ويدعوه للإيمان به، ومن ثمرات هذا الصبر، إيمان أبي ذر الغفاري والطفيل بن عمرو وغيرهما في بداية الأمر، ثم كان إيمان الأنصار، الذي مهّد للهجرة العظيمة التي شكلت فتحًا جديدًا في مسار الدعوة الإسلامية، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يدرك منذ البداية أهمية وجوده في

مكة، فهي محط الحجيج وزوار البيت العتيق، ومكان سوق العرب، ومربط خيول شعرائهم. وحاضرة العرب الرئيسة في الجزيرة العربية.

وحققت هذه الاستراتيجية بناء جيل متين الإيمان في مكة، تعرّض لكل صنوف الابتلاء والتمحيص فصبر، وكان لصبره ثمرات النصر الأولى بعد الهجرة وبناء الدولة، ومواجهة أعداء الله بالسيف. وأرست هذه الاستراتيجية لكلّ الأمّة مسارًا لكيفية التعامل مع المعاندين، والذين يقفون بوجه الدعوة الإسلامية، حين يتطلب الأمر صبرًا وتحمّلًا، وحين يتطلب شدّة ومواجهة بالحجّة البالغة المؤثرة في النفوس.

أرجو أن أكون وفقت فيما عرضت من دروس في حياة قائدنا ورسولنا محمد صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم، وما أصبت فمن الله وما أخطأت فيه فمن نفسي والشيطان.

***

الهوامش

• باحث ودكتور محاضر في كلية الدعوة الجامعية في لبنان والجامعة اللبنانية- مدير المجلس العالمي للغة العربية- رئيس معهد معلمي الخير للتنمية المجتمعية- العرقوب. ونائب رئيس الجمعية اللبنانية للدراسات والأبحاث.

([1]) سورة المدثر: آية ١ - ٧

([2]) سورة الشعراء، آية: ٢١٤

([3]) أ- ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص457-458

ب- انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص 320-321.

([4]) انظر، ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص399-403.

([5]) انظر، ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص266.

([6]) ابن كثير، اسماعيل بن عمر: السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، 1395هـ - 1976 م، ج1، ص474.

([7]) المصدر السابق ذاته، ج1، ص475.

([8]) انظر، أبو زهرة، محمد: خاتم النبيين، ج1، ص139

([9]) انظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص63-64

([10]) ابن كثير: البداية والنهاية، ج2، ص293.

([11]) أبو زهرة، محمد: خاتم النبيين، ج1، ص140.

([12]) أبو زهرة، محمد: خاتم النبيين ، ج1، ص140.

* الخمسة الذين سموا محمد في الجاهلية هم: محمد بن خزاعى، ومحمد بن سفيان التميمي، ومحمد بن الجُشَمِي في بني سواءة، ومحمد الأسدي، ومحمد الفُقَيمِي. (انظر، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص111-112)

([13]) انظر، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص 97.

([14]) انظر، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ص 47-48. وحادثة شق الصدر وردت في أكثر من مناسبة وذكرها الإمام مسلم في صحيحه من طريق: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلعب مع الغلمان، وجاءه الملكان فأخذاه وشقا صدره... (صحيح مسلم بشرح النووي، ج2، رقم: 411-461، ص389) وذكر الحادثة (ابن سعد في الطبقات الكبرى، ج1، ص96-97). ويشكك فيه بعض الحداثيين من الذين تناولوا تراث النبي صلى الله عليه وسلم بالمنطق العقلي المجرد.

([15]) حوى، سعيد: الأساس في السنة- السيرة، ج1، ص 170. والحديث رواه الحاكم في المستدرك، وقال حديث صحيح على شرط مسلم.

([16]) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص98.

([17]) المصدر السابق ذاته، ج1، والصفحة ذاتها.

([18]) انظر، المصدر السابق ذاته، ج1، ص76-99.

([19]) انظر، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص 101- 102.

([20]) صحيج البخاري، ج2، كتاب مناقب الأنصار، باب بنيان الكعبة، ص 317.

([21]) الطبري، تاريخ الطبرّي، ج2، ص305.

([22]) أ- الطبري: تاريخ الطبري، ج2، ص95.

ب- انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص 102.

([23]) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل- باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، ج15، ص38-39.

([24]) حوى، سعيد: الأساس في السنة، السيرة، ج1، ص 182.

([25]) سورة المزمل، الآية 1-5.

([26]) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد، دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، ج1، ص213.

([27]) سورة المدثر، الآية: 1-2.

([28]) ابن الأثير، عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي: الكامل في التاريخ، ج1، ص584-585.

([29]) المصدر السابق ذاته، ج1، ص585.

([30]) انظر، المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 85-86

([31]) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص 145.

([32]) انظر، ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص301-302.

([33]) سورة الحجر، الآية: 6.

([34]) سورة ص، الآية: 4.

([35]) سورة القلم، الآية: 51.

([36]) سورة الأنعام، الآية: 53.

([37])سورة المطففين، الآية: 29...33.

([38]) انظر، حوى، سعيد: الأساس في السنة، ص233.

([39]) انظر، أبو زهرة، محمد: خاتم النبيين، ج1، ص 476-477.

([40]) انظر، المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 120.

([41]) انظر، المصدر السابق ذاته، ص89.

([42]) المصدر السابق ذاته، ص90.

([43]) انظر، ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص496.

([44]) انظر، المباركفوري: الرحيق المختوم، مصدر سابق، ص91.

([45]) انظر، دراسة في السيرة، تحقيق أدور سخاو وآخرين، ص 90.

([46])انظر، أبو زهرة، محمد: خاتم النبيين، ج1، ص 480

([47]) ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص 320.

([48]) انظر، خليل، عماد الدين: دراسة في السيرة النبوية، ص 71.

([49]) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص 293-294.

([50]) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص 293-294.

([51]) انظر، ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص 299.

([52])انظر، المصدر السابق ذاته، ج2، ص419- 421

([53]) أبو زهرة، محمد: خاتم النبيين، ج1، ص 550.

([54]) انظر، أبو زهرة، محمد: خاتم النبيين، ج1، ص290.

([55]) البخاري، محمد بن أسماعيل: صحيح البخاري بحاشية السندي، ج2، ص 321.

***

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

- ابن الأثير، عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي: الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1407هـ -1987م.

- ابن الحجاج، مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي المسمى المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار المعرفة، ط3، 1417هـ 1996م.

- ابن سعد، محمد: الطبقات الكبرى، تحقيق عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، 1410هـ- 1990م.

- ابن كثير، اسماعيل بن عمر: السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، 1395 هـ - 1976 م.

- ابن هشام، محمد بن عبد الملك: السيرة النبوية، دار ابن كثير، بيروت، (د-ت).

- أبو زهرة، محمد: خاتم النبيين، بيروت، المكتبة العصرية، (د-ت).

- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد (ت: 430هـ)، دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: الدكتور محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، بيروت: دار النفائس، ط2، 1406 هـ - 1986 م.

- البخاري، محمد بن اسماعيل: متن البخاري بحاشية السندي، بيروت، دار صعب، (د-ت).

- حوى، سعيد: الأساس في السنة- السيرة وفقهها، القاهرة، دار السلام، ط3، 1416هـ- 1995م.

- خليل، عماد الدين: دراسة في السيرة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط15، 1997م.

- دراسة في السيرة، تحقيق أدور سخاو وآخرين، طبع مصورا عن طبعة لندن، مؤسسة النصر، طهران، 1325هـ.

- صحيج البخاري، بيروت، دار صعب، (د. ت.).

- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار التراث. (د-ت).

- المباركفوري، صفي الرحمن: الرحيق المختوم، الرياض، دار المؤيد، 1418هـ 1998م.

***